تمظهرات التاريخ الإسلامي في الرواية الجزائرية
"رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" أنموذجا

أ. حسينة سلام
كلية الآداب واللغات جامعة تبسة

الملخص:

تتناول هذه المقالة واحدة من إبداعات الطاهر وطار" الولي الطاهر يعود الى مقامه الزكي" التي يسعى من خلالها إلى إعادة قراءة التاريخ الإسلامي والتأكيد على مقولة أنَ التاريخ يعيد نفسه، من خلال تركيزه على تيمة القتل باسم الدين التي نعيشها في عصرنا الحالي، حيث يتقاطع الواقعي والتخيلي وفق لغة سردية تناصية مع التراث الديني والتاريخي كاشفة عن رؤية رفضية واحتجاجية لما كان وما هو كائن ومتخوفا مما سيكون.هذه الرواية والتي تحمل بين طياتها الكثير من التجريد السريالية تتصارع فيها أفكار سياسية وثقافية واجتماعيه يدور رحاها في الماضي والحاضر تصوّر الأحداث التاريخية تصويرا فنيا وملحميا بتعبير صوفي ورؤية سياسية. تجعل من الحوار والمونولوج والاستحضار التناصي للشخصيات الدينة الإسلامية مرتكزا تعاين من خلاله الواقع الروائي الممثل، تمثيلا حقائقيا أو تخيليا ، ينطلق من رؤية الروائي الخاصة للعالم والواقع والتاريخ الإسلامي في حدّ ذاته.الأمر الذي يدعو إلى جملة من التساؤلات نتوخى مقاربتها في هذه الأسطر.من أهمها: كيف تمثل التاريخ الإسلامي في الرواية؟ وهل استطاع الروائي أن يُقنع المتلقي بأفكاره النقدية؟ وهل كانت عودته إلى مقامه الزكي عودة موفقة أم مستحيلة؟ وهل العودة إلى التّاريخ الإسلامي عودة لها مبرراتها في الرواية؟ وعليه سنحاول استجلاء أهم المحطات المتعلقة بالتاريخ الإسلامي في الرواية وتحليلها للكشف عن وعي السارد ومدى إدراكه لوضعه وحساسيته سواء الدينية أو السياسية.

Summary:

Manifestations of Islam history in contemporary Algerian novel "wail Tahar back to his place innocent- model -**

This article deals with one of the creations of Al-Tahir and Tariq al-Wali al-Tahir, which is based on his zakih position, in which he seeks to re-read Islamic history and to emphasize that history repeats itself by focusing on the theme of murder in the name of the religion we live in today, Realistic and imaginative according to the language of narrative contradictions with the religious and historical heritage revealing a vision of rejection and protest of what was and what is and is afraid of what will be. This novel, which carries a lot of abstraction and surrealism, struggling with political, cultural and social ideas, revolves in the past and present, And a political vision. It makes the dialogue, monologue and the evolution of the Islamic religious figures a basis in which the

المنارة للاستشارات
ww

reality of the narrator is represented, a representation of fact and fiction, based on the vision of the novelist of the world and the reality and Islamic history in itself. This raises a number of questions. The most important of these are: How does Islamic history represent the novel? Was the novelist able to convince the recipient of his critical ideas? Was his return to his place Zaki a successful or impossible return? Is the return to Islamic history a return to its justification in the novel? From here we will try to clarify the most important stations related to Islamic history in the novel and analyze it to reveal the awareness of the narrator and his awareness of his status and sensitivity, whether religious or political

إنّ الرواية لا تكتب نصا تاريخيا بقدر ما تقدم تصويرا تخيليا يلامس الواقع ويعبر عنه بطريقة فنية تحاول أن تعيد صياغة التاريخ وتوظيفه من باب النقد والمساءلة ،لا من باب التأريخ فالروائي بطبعه الثقافي الأدبي منفلت عن التاريخ، فهو يأخذ منه ما يخدم فكرته ورؤيته ويبني على أساسه مساره السردي ينطلق منه ليصل إلى حقيقة مغايرة متخيلة في أغلب الأوقات بغرض توسيع الدلالة وبناء الحكاية السرديةّ "ذلك أن التّخيل التاريخي في نظره هو المادة التاريخية المتشكلة بواسطة السرد وقد انقطعت عن وظيفتها التوثيقية، وأصبحت تؤدي وظيفة جمالية،كما أنّ ابتكار حبكة للمادة التاريخية هو الذي يحيلها إلي مادة سردية "(1).وهنا يكمن الاختلاف بينه وبين المؤرخ الذي ينطلق من تساؤلات تفكيكية وضوابط علمية عقلية بعيدة عن العاطفة.وتأسيسا على هذا يبرز التّمايز بين العقل والإبداع هذا الأخير من أبنيته الأساس العاطفة والخيال، رغم أنّ مصدره العقل الذي يصنع الخيال المتجاوز للوثيقة التاريخية، إمّا بالإضافة أو التغييب أو التركيب بين المتناقضات، بين المقدس والمدنس بين القديم والجديد أو الفصل بينهما، فيغدو التاريخ الجاف المتوقف في لحظة زمنية ماضية حيا حيويا في الراهن الزمني الروائي.

يرى سعيد يقطين " أنّ النصوص الروائية المعاصرة تتعامل مع التراث العربي وفق نمطين أو شكلين:

الشكل الأوّل: هو الانطلاق من نص سردي قديم كشكل واعتماده منطلقا لإنجاز مادة روائية، وتداخل أشكال السرد وأنماطه، ومن ذلك التداخل بين لغة المبدع باللغة المستلهمة كأسلوب المقامات والرسالة.

المنارة للاستشارات
ww

الشكل الثاني: هو الانطلاق من نص سردي قديم محدد الكاتب والهوية وعبر الحوار أو التفاعل النّصي يتم تقديم نص سردي جديد (الرواية)، إنتاج دلالة جديدة لها صلة بالمتن الجديد الذي ظهر فيه النص"2. والطاهر وطار كتب روايته حسب الشكل الثاني فقد أخذ النّص التاريخي الذي يمتد في الحاضر بكل دلالته. فالتاريخ يتداخل مع الرواية في قضية السرد وحكي الوقائع التاريخي، "والنص الروائي دائما ما يأتي بموقف من الذات والواقع والتاريخ عبر نقده لمختلف أنماط الوعي التى عمل على تعريتها والكشف عنها، وهو يؤطرها في جذورها التاريخية، وينظر إليها في عناصرها البنيوية"(3)

"والطاهر وطار "حين يستدعي التاريخ الإسلامي يريد تبيان مدى التقاطع الحاصل بينه وبين حاضره وعصره ومدى استمرارية وتشابه الأحداث في الزمان والمكان المنفصلين، ليلقي بثقل الصراع الذي يعيشه على الماضي، وبتالي "فالتوازي المراد الكشف عنه بالعودة إلي الماضي هو ذلك التشابه الذي يجمع بين فترتين مختلفتين في الزمن متباعدتين، لكنهما متقاربتين في المعطيات السياسية والاجتماعية والثقافية والإيديولوجية ،وذلك بهدف المزج بين هموم الحاضر والماضي"(4).فرغبة الروائي الأساسية هي انشاء كلية روائية سردية تقوم على الصيرورة التخيلية الموازية للنصوص التاريخية الموثقة من قبله، هنا يتجاوز الروائي تيمة السرد والاسترجاع الحرفي للتاريخ إلى النقد والتحليل وتفنيد الكتابة التاريخية فتصبح الكتابة السردية كتابة مضادة للتاريخ.

والرواية الجزائرية عندما تكتب التاريخ الإسلامي ، تكتبه بواسطة تقنيات حديثة وتقرؤه قراءة حديثة برؤية تاريخية، فتحلل الشخصية التاريخية الرمزية تحليلا نفسيا محاولة ايهام المتلقي بعقلانية الطرح والتحليل "فتصبح الشخصية نموذجا بشريا ولا تبقى أسيرة زمانها وفيها يتحقق الامتداد بين الماضي والحاضر ،وتتعدد الضمائر ويجبر القارئ على المشاركة في الأحداث باندماجه في المقروء" (5 ،ولمعالجة القضايا المتعددة والتي تدور جلها في فلك القتل باسم الدين رغم اختلاف الحوادث والشخصيات إلّا أنّ الهدف والطريقة تبقى ذاتها على مر التاريخ وفي كل الأماكن. وقد استخدم الروائي تقنية تعدد الأصوات والأقنعة لتمثيل الشخصيات التاريخية تمثيلا سردجا تخيليا .

ورواية الولي الطاهر يعود الي مقامه الزكي من الروايات التي تحاول استنطاق التاريخ الإسلامي ونقده، وقد اعتمد الروائي في بناء نصه السردي على حادثة حروب الردة فهو يقول "اتكأت في هذا العمل على حالة وقف أمامها خليفتان، لا نقاش في

المنارة للاستشارات
ww

نزاهتهما موقفين متضادين هي حالة قتل خالد بن الوليد، لمالك بن نويرة، ففي حين طالب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، برجم خالد، وهذا موقف مبدئي في منتهى الصرامة القسوة قال أبو بكر رضي الله عنه، لقد اجتهد خالد ...وخلاصته، أنّه يشك في إصابته فله أجر واحد"(6)

وهنا يتم إسقاط التاريخي على الواقعي، ليعالج بذلك قضية القتل باسم الدين حسب رؤيته أو مسألة التكفير الذي يجرم المرتد دون تبين الحقيقة والحكم المتسرع عليه بالجرم، فمالك بن نويرة في نظر الرواي البطل بريء من التهم الموكلة في حقه، والمتهم الذي وجب عقابه هو الصحابي خالد بن الوليد.

انطلق الروائي من الوثيقة التاريخية التي تدين خالد مقتبسا الحادثة من المراجع التاريخية التي فيها من الاختلاف والتباين في قضية قتل مالك بن نويرة الكثير فهو يقول "لقد تعاقبوا الواحد تلو الآخر على دار الكتب، يطلبون كتب التاريخ .الطبري واليعقوبي، البلاذري، بن بسام، الكلاعي البلنسي حتى كتاب الأغاني يا مولانا "7، ومعظم هذه الكتب التاريخية أوردت روايات كثيرة للحادثة، مع نسبها لأصحابها وهذا الاختلاف والتعدد زاد من تعتيم الحقيقة وحجبها، فراح كل شخص يروي الحادثة من منظوره الخاص ويتبنى الفكرة التي من شأنها تأييد رؤيته الإيديولوجية اتجاه القضية موضوع الكتابة، فإذا عدنا إلى كتاب تاريخ الطبري فسنجد هذا الأخير يورد جل الروايات المنصفة لخالد والمُدينة له في الوقت نفسه "فالطبري يمتنع من إعمال العقل في رواية الأخبار، ينقل هذه كما وصلت إليه حتى إن خالفت أوامر الدين أو عارضت الذوق السليم"8.وهو من المراجع التي عاد إليها "الطاهر وطار" بالإضافة إلى كتاب"الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء "للكلاعي، وقد أشار الطبري في نقله لروايات حروب الردة إلى عدم اتفاق الخليفة أبو بكر وعمر في قضية خالد وزواجه من أم تميم زوجة مالك "وتزوج خالد أم تميم ابنة المنهال وتركها لينقضي طهرها وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعايره وقال عمر لأبي بكر إن في سيف خالد رهقا فإن لم يكن هذا حقا عليه أن تقيده وأكثر عليه في ذلك وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولوزعته فقال هيه يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد وودى مالكا وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ففعل فأخبره خبره فعذره وقبل منه وعنفه في التزويج الذي كانت تعيب عليه العرب من ذلك"9

وفي رواية أخرى للطبري يقول "حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة قال حدثنا ابن اسحاق عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وكان

المنارة للاستشارات
ww

ممن شهد لمالك بالإسلام أبو قتادة بن الحارث بن ربعي أخو بني سلمة وكان خالد يعتذر في قتله أنّه قال له وهو يراجعه ما أخال صاحبكم إلّا وقد كان يقول كذا وكذا، أمّا تعده لك صاحبا ثم قدمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه"10، فالقتل هنا كان متعمدا من قبل خالد بن الوليد، والنّص الروائي يُدين خالد ويقف موقف عمر بن الخطاب الذي طالب الخليفة معاقبة خالد لتسرعه في قتل الشاعر الشريف كما ورد في الروايات التاريخية والمقتبسة من قبل الروائي فقد كان "شاعرا شريفا وفارسا بارزا، ممتعا بالجمال"11.فالشرف والنبل والفروسية سمات لا تكاد تفارق الرجل السّوي الورع المتزن لا المرتد الطاغي، الذي بمجرد موت الرسول صلى الله عليه وسلم يمنع الزكاة ويعود إلى ما كان عليه في الجاهلية. وقتله إجرام في حقه وهذا ما دعا الطلبة والطالبات يصلون صلاة الغائب له لأنّه فيما مضى اعتبر مرتدا فهم يطلبون الولي الطاهر أن يسمح لهم بالصلاة عليه "لقد قرروا يا ولي الله الطاهر، أن يرفعوا إليك عريضة يستأذنوك فيها بإقامة صلاة الغائب على مالك بن نويرة".12

وبالرجوع إلى الحادثة كما وردت في سياقات أخرى ترى عكس ما ذهب إليه الطبري والكلاعي، وأغلبها مالت إلى الصحابي خالد بن الوليد، وأنصفته. إذ حقق "علي العتوم" في القضية قائلا: "إنّ الذي أردى مالكا، كبره، وتردّده فقد بقي للجاهلية في نفسه نصيب، وإلّا لما ماطل هذه المماطلة في التبعية للقائم بأمر الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي تأدية حق بيت مال المسلمين عليه، والمتمثل بالزكاة"13

هذه إدانة صريحة لمالك بن نويرة وتكذيب لباقي الروايات" فارتداده، ووقوفه بجانب سجاح، وتفريقه إبل الصدقة على قومه، بل ومنعهم من أدائها لأبي بكر، وعدم إنصاته لنصائح أقربائه المسلمين في تمرده، كل ذلك يدينه، ويجعل منه رجلا أقرب إلى الكفر منه إلي الإسلام "14 وفي رواية أخرى تُخطئ خالد بن الوليد ولا تدينه، يقول الطبري "فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة فكان فيمن شهد أنّهم قد أذنوا وأقاموا وصلوا فلما اختلفوا أمر بهم فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء فأمر خالد مناديا " أدفئوا أسراكم " ، وهي في لغة كنانة القتل فظن القوم أنّه أراد القتل ولم يرد إلا الدفء فقتلوهم فقتل ضرار بن الأزور مالكا، وسمع خالد الواقعة فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمرا أصابه"15.ومالك بن نويرة أوكله الرسول صلى الله عليه وسلم مصدقا على قومه بني يربوع فكان من بين الصحابة المذكورين في هذه الرواية الذين وثق فيهم

المنارة للاستشارات
ww

الرسول صلى الله عليه وسلم ،فالراوي يشير إليهم في قوله بضمير الغائب "بعضهم اهتم بإسلامه، وهل كان إسلاما صادقا، إلى درجة أن يكون محل ثقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيبعثه من جملة المصدقين في العرب، عكرمة وحامية بن سبيع الأسدي والضحاك بن سفيان، وعدي بن حاتم، وغيرهم، وهم صحابة رضوان الله عليهم "16، فالنّص الروائي يحاور النّص التاريخي من باب المجادلة والعودة إلى السبب الذي جعل الرسول عليه أزكى الصلاة والسلام يثق في مالك دون غيره من الرجال، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على نزاهة وأمانة مالك . هذا فضلا عن موقف الفاروق عمر والمعروف بعدالته وحكمته، اتجاه واقعة القتل غير المبرر، والزواج المكروه في الحرب وهذا يبرز في الملفوظ السردي من خلال التساؤلات التاريخية والاحتمالات التي يجب على الناقد المتمكن طرحها إزاء التاريخ، إذ يطرح الروائي مسألة القتل العشوائي والتكفير المرتبط بالمنظومة العقائدية التاريخية، والتي حسب رأيه كانت تجتهد باسم الدين في القتل، وتستبيح دم الإنسان لمجرد الشك في إسلامه فالراوي يتساءل " هل يمكن الشك في إسلام مالك، إلى درجة قتله؟ لو أنّ مالكا لم يقتل، هل كانت الحرب تتواصل ويسقط من الضحايا ما سقط، بعضهم اهتم بخالد بن الوليد رضي الله عنه، وراح يتساءل عما لو نفذ مطلب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأقيم الحد عليه، من يكون الظالم ومن المظلوم"17،فالسارد يحاول توجيه هذه الأسئلة للمتلقي المتفاعل معه، ليعيد حساباته وينقب عن أصل الحقيقة التي طالما اعتبرها مقدسة، لا يجوز المساس بها، مستخدما حوارية باختين كمفهوم سردي يوظف " للإشارة على علاقة الاستجابة، والتبادل بين القارئ والنّص، عبر المفردات التي تعتبر علامات إيديولوجية تصنع بطريقة معينة حوار مع الآخر تجعله يدخل في سياق آخر تتقاطع فيه الرؤى المختلفة للعالم" 18.فالحقيقة التاريخية ليست حقيقة مطلقة بل نسبية تحتمل الصواب والخطأ ، والتاريخ الإسلامي لا يعني تاريخ الإسلام ، فالتاريخ يكتبه بشر غير معصومين بل وأكثر من ذلك فالصحابة أيضا بشر عاديين، وخالد بن الوليد رضي الله عنه، حسب النّص الروائي إنسان تحكمه السلطة وتسييره "قالوا، مهما كانت بطولة خالد، فليس فيه فتوة، لقد كان عسكريا، يتصرف كما يتصرف كل عسكري، لا يهمه من أمر الحرب سوى كسبها، وسيحكم الله بينه وبين مالك بن نويرة".15فمالك صادق في إسلامه، وهذه الحجج التي أوردتها الرواية تدينه وتنسب العنف والتكفير إليه باعتباره أوّل قتل تكفيري باسم الدين الإسلامي، هذا ناهيك عن جعل رأسه أثفية لقدر .كما تمت إدانة أم متمم التي

المنارة للاستشارات
ww

بدورها استسلمت وانصعت لأوامر خالد " كيف أبدت أم متمم كل هذا الاستسلام وهذه اللامبالاة تجاه ما جرى لها أو على الأقل ما جرى حولها وما كان رد فعلها، ترى رأس مالك أثفية لقدر...أكانت أم متمم هي التي وضعت القدر، فوق رأس مالك؟"19، فهذا الرؤية تُتخذ كحجة إضافية تُدين خالد فقتله لمالك لم يكن بسبب منعه الزكاة، بل للظفر بأم متمم التي كان يحبها في الجاهلية والروائي يمرر فكرة الصراع والإغواء المرتبط دائما بالمرأة، والمرأة نفسها سواء كانت بلارة ،أم متمم في الرواية إحالة إلى الجزائر التي يتنازع حولها طرفين متناقضين هدفهما واحد وهو السلطة، فالإسلام السياسي وباسم الدين والجماعة وتغييب الآخر بل وتكفيره يريد تقلد الحكم، والدولة العسكرية لا ترضى بالتنازل عن سلطتها ومكانها ولو على حساب الشعب وتبقى الجزائر مستسلمة لهذه الحركات التي تتقاذفها من كل صوب . فحروب الردة التي حدثت في عصر صدر الإسلام والتكفير باسم الدين ما هي إلّا انعكاس بالصورة نفسها في صحراء نجد أين كان للحركة السلفية الوهابية نصيب من القتل والعنف والتعصب الديني، فقد كان تمثيل الروائي لشخصية عن طريق تقنية القناع -محمد بن عبد الوهاب-زعيم الحركة السلفية المنتشرة في الدول الإسلامية على نطاق واسع والتي ذكرها الراوي من خلال تقمصه شخصية عبد الوهاب، والإرهابي الذي يقتل في الجزائر ومناطق أخرى عربية ويدعو إلى الحرب على الأعداء هذه الحرب التي اعتبرت حربا مقدسة ومبررة من قبل هؤلاء الجماعات، فالراوي وفي سياق حديثه عن الاقتتال بين المسلمين فيما بينهم قال "تبادل الخصمان الأولان رسائل لاسلكية، وقرروا أنّ هذا الطرف الثالث في هذه الحرب المقدسة، لن يكون سوى طرف عميل دخيل، اندس بين الصفوف لشقه"20. فهو يقول على لسان زعيم الحركة الجهادية السلفية " لعلهم اطلعوا على مشروعنا فجاءوا يستبقوننا قلنا، نحصن الدرعية، ثم نبدأ بعينة، ننطلق أول الأمر من عشيرتنا والقبائل، فنأتي أولا على الأحساء، ثم نتجه إلى الغرب، حتى الكويت، ثم نتقدم نحو الشمال، حتى كربلاء وقبر الحسين. نجمع شمل قبائل نجد، ونشن الهجوم على مكة، والنجف ودمشق، ونواصل نحو الشمال حتى حلب. وكل بلاد العرب والإسلام، نحررها من عبادة الأوثان وتقديس القبور، وتعاطي المحرمات، طبقا للآراء الإمام أحمد بن حنبل، وتفاسير بن تيمية عليهما الرحمة. مادام شيخ عنزة قد وافق فلنعد الخلافة من هنا. من الدرعية وعيينة والأحساء .ننهض هؤلاء المستكينين الجهلة الأذلاء، ونبدأ من حيث بدأ العرب الأوائل".21،وفي الجملة الأخيرة نبرة سخرية وإشارة مباشرة إلي لهجة العنف والاتهام بغير وجه حق ودون

المنارة للاستشارات
ww

تبين، وتعميم الصفات السلبية على كل الناطق والناس الذين يقطنونها فهو يقول (هؤلاء المستكينين الجهلة)، فيتم إسناد العلم بالطريق غير المباشر لهم فقط، فإذا كانت هذه هي اللغة التي يتكلمون بها فبمالك أفعالهم وتكفيرهم وقتلهم كل من يحمل فكر معادي لمذهبهم، فكر تعود جذوره إلى التاريخ الذي نشأت فيه الحركة والمرتبط بتاريخ العنف الذي قامت به على أرض الواقع، فأول ما قامت به هذه الحركة التي تحمل فكرا طائفي تطرفي، هو احتلال شبه الجزيرة العربية والأحساء والكويت والحجاز واليمن وعمان، وتحطيم قبور الأولياء وهدم المساجد المزخرفة، والكثير من الأعمال التخريبية التي لا تمت بصلة إلى الدين الحنيف وقد أضاف السارد البلدان الغربية ضمن الخطة التي يعتمدها أصحاب هذه الحركة باسم الفتوحات الإسلامية المتجددة "نعيد الجهاد في سبيل الله، إلى ما كان عليه، ونستأنف الفتوحات ،نستعيد القسطنطينية، والمغرب والأندلس، ونصل هذه المرة، موسكو وباريس وكوبنهاغن، والهند والسند وكل العالم.يدخل الناس أفواجا في دين ربهم أو يدفعون الجزية." 22، فالملفوظ السردي يتناص مع سورة "النصر" وفق آلية التآلف والتخالف فالتآلف واضح في عبارة يدخلون في دين الله أفواجا المتناصة مع السورة {إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك استغفره إنه كان توابا}23، تقر الآية بأنّ الله سبحانه وتعالى أعان رسوله الكريم على أعدائه في فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، فدخل بذلك العرب في الإسلام جماعات جماعات، فالفتح غايته إثبات الدعوة السليمة والرسالة الحقة، فكان النصر حليفه، وثبتت بذلك أسس الإسلام، وعلت كلمة الحق، فالشخصية الروائية بخطابها المباشر بضمير المتكلم الجمعي"نبدأ من حيث بدأ العرب " تسعى لإدماج العرب وغيرهم في هذه الفرقة المتطرفة التي تلبس عباءة الدين، لكن التخالف والمفارقة، يكمن في الطريقة والأسلوب المتبع من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم كما هو معروف، مقابل الفكر الإقصائي التطرفي المبني على قناعات دينية، وفتاوي دينية مغلوطة وغير منطقية المقترنة بالعنف، البعيد عن الدين الإسلامي، فكانت الغاية المصلحة، والسلطة وتقلد الحكم لا غير. فتجاوز بذلك الفتح السلفي للجماعة فتح مكة إلى فتح الدول الغربية، موسكو وباريس وكوبنهاغن. الخ، فالروائي ببعثه النص التاريخي، يريد الكشف عن العبث الذي مورس من قبل في التاريخ باسم الشرع والدين، فهو بعث مرده الكشف عن العبث المستمر في الحاضر، ليكون الرجوع إلى الماضي متنفسا يروم من خلاله الروائي رمي ثقل الحاضر، وأحزانه على الماضي، الذي يرى أنّه السبب

المنارة للاستشارات
ww

فيما يحصل وسيحصل إن لم نعد القراءة والتريث في الحكم . وليكشف الروائي عن الآثار التي خلفها التاريخ الإسلامي ، أو حروب الرّدة التي تتكرر عبر الزمن،جسد ذلك من خلال الأقنعة التي يلبسها الولي الطاهر أثناء غيبوبته، أو بالأحرى أثناء شطحاته الصوفية، يقول الراوي بهذا الصدد :"أخذته رعشة، واعترته حمى، وداهمته غمى، فكبر وشمر على ذراعيه، وارتمى يخوض أوار مجزرة، ملتهبة."24، فقد تمثل صورة الإرهابي الذي يدخل الحرب في الجزائر أثناء العشرية السوداء، ويقاتل مع جماعات لا يعرف كنهها ، وليعرف حتى ضد من يقتل ولماذا يقتل ، ما يحيل على اقتراب الساعة، أين يقتل الأخ آخاه لا لسبب ودون مبرر: "لم أكن أعرف القوم، لكن يكفي أنّهم كانوا يشنون حربا." 25 ، ، وعلى لسان البطل الولي الطاهر، هذا البطل المغترب التائه والمتشظي بتشظي المكان والزمان الصوفي الروائي الذي يعيش في كل الفضاءات الروائية ولايستكين ولايستقر في بعد فضائي محدد، يترك الراوي للشخصية الروائية الحرية، في التعبير عن رأيها، مستترا ورائها ليخفي إيديولوجيته، الرافضة لهذه البنية الفكرية المتطرفة الإقصائية للآخر العربي، المسلم المعادي لفكره يصف وحشية الحوار، المرتبط بالقتل، فكان الفضاء الروائي المتخيل، هو حي الرايس بالجزائر "الاستغاثات تتعالى في كل شبر، من حي الرايس، والانفجارات تتوالى. والدخان يصاعد مع الغبار، وأنفاس الجميع تضيق.

- أخرجوا الجميع، نساء ورجالا إلى الشارع. الذكور ينبطحون على بطونهم، أمّا السبايا، فعلى ظهورهن."26. فالمرأة لا تصلح إلا للسبي، طبعا إذا تم اختيارها من طرف الجماعة الإرهابية وهذا هو سبب وضعية الانبطاح على الظهر. والباقي القتل والموت هو الطريق الوحيد الذي ينتظرهم.

وليبرروا فعلتهم الشنيعة، استخدموا الدين، كغطاء يقدس الجريمة، المرتكبة في حق الأبرياء،والمستوى الدلالي للحوار العنيف الذي مضمونه القتل الشنيع، الموحى بفضاعة الإنسان القاتل باسم الشرع والدين، الذي يغيب عقله وإحساسه ويتحول إلى مجرد أداة قديمة تقطع دون رحمة رؤوس البشر، فالساطور من أبشع الأسلحة التقليدية قسوة على الحيوان فما بالك البشر، والحوار الخارجي بين البطل الذي يمثل الجماعة وبين الضحية والذي ورد في النّص الروائي يوضح عنف اللغة وعنف الواقع معا" لا إله إلا اللّه.أشهد أن لا إله إلا اللّه. أشهد أن محمدا رسول اللّه.

- يهوي الساطور. يتدفق الدم. يتطاير الرأس.

المنارة للاستشارات
ww

- أنا مسلم أصلي أصوم أحفظ فرجي وعرضي.
- يهوي الساطور. يتدفق الدم. يتطاير الرأس.
- يا إخوتي. يا إخوتي.
- يهوي الساطور. يتدفق الدم. يتطاير الرأس.
- رضعة واحدة واحدة فقط لوليدي. اسمعوا إنه يصرخ عطشان.
رضعة واحدة يا مؤمنين، وافعلوا بي بعدها ما تشاؤون. رض...
- يهوي الساطور. يتدفق الدم. يتطاير الرأس."27

فكما انمحى القرآن كله من ذاكرة الولي الطاهر بطل الرواية، عدا سورة الفاتحة والأعلى، انمحت جل الرحمة الإلهية التي أودعها الله، في الإنسان المؤمن فلم يعد يفرق بين المرأة والرجل وبين الرضيع والمريض، الظالم والمظلوم، وهذا ما حدث بالفعل في الواقع. واستشرف له الروائي مستقبلا جراء الفهوم الدينية المغلوطة للخطاب الديني.

وإذا عدنا إلى شخصية المرأة، كشخصية تاريخية في الرواية، فإننا نلحظ حضورها في شخصية "بلارة بنت تميم التي أوقفت الحرب بين "بني مالك الناصر" وابن عمه "تميم المعز" بالزواج من الملك ناصر، زواجا مصلحيا ونفعيا يعود بالنفع على الجميع، فحقنت بذلك الدماء ووضعت حدا للقتل والتقتيل، فهي تعتبر "من ربات العقل الهمة وكرم الشمائل. ولدت بالمهدية، وعنى والدها بتربيتها تربية عربية، قوامها العلم والدين ولما شبت، رغب الأمراء في خطبتها...فزوجها والدها ابن عمها الذي أمهرها ثلاثين ألف دينار ذهبا فأخذ تميم من ذلك المبلغ دينارا واحدا ورد الباقي"28

فكان دور المرأة في هذه الحقبة التاريخية دورا فاعلا في الزمان والمكان غيرت أحداث كادت أن تقع لولا رجاحة عقلها وفكرها السّوي، متجاوزة بذلك الدور التقليدي المنوط بالمرأة، لتتحول إلى بطلة تحمل لواء الدين الإسلامي وتحافظ على مبادئه ولو على حساب مصلحتها ورغبتها الشخصية، تجمع بين الصنهاجيين وبني حماد بدهائها السياسي وعلمها وجمالها، لكنها في زمن الرواية تتناص مع الشخصية التاريخية تناصا عكسيا وتخالفيا ،فهي مجرد امرأة تشجع على الغواية، والرذيلة والتخلي عن الأصل لتعيد بناء نسل جديد لهو بالقديم ولا الجديد. ففي إطار وصفها يتوقف زمن الحكي ليكشف عن أهم سماتها والتي تُظهر الطاهرة وتُخفي الدناءة إذ يقول الراوي بضمير الغائب: "كانت شبه عارية، طرحت جلبابها، ثم قميصا حريريا ورديا، ثم سروال جينز بعضه مبيض وبعضه يحتفظ بزرقته الدكناء، وقذفت

المنارة للاستشارات
ww

بحذائها ذي الكعب العالي، بعيدا عنها غير مبالية بموقعه" 29 ،فنزع الجلباب رمز الهوية الإسلامية للمرأة المسلمة، كان بالنسبة لها مجرد غطاء تتخفى فيه وتبطن داخله نوايا غير أخلاقية البتة ، وهذا ما جعل الولي الطاهر يفكر في التخلص منها بسفك دمها والتي حذرته منه، فيقرر خوض معركة معها "قرر أن يبدأ المعركة"30 ، فبعد أن كانت بلارة بطلة في التاريخ الإسلامي تحقن الدماء وتمنع نشوب الحرب والمعارك، غدت بلارة الشخصية المتناصة في الرواية، العدو والسبب في سفك الدماء .وهي في الرواية رمز للعولمة الغربية التي تريد احتلال العقول والأجساد باسم الجديد والمعاصر والجديد في الرواية، عصر متعلق بالنسل الذي يمثل كل الناس الذي تطالب به بلارة، الأمر الذي يحيل على سطوة ومركزية غربية تريد تنميط الفكر والثقافة ولو على حساب الدين.

فالإطار العام للرواية ينطلق من فكرة مؤداها البحث عن المقام الزكي والعودة إليه، فكانت رحلة البحث عنه شاقة، تدور في فلك اللازمان واللامكان، زمان الحروب والفتن، آملة العودة إلى المقام، لتؤسس لمدينة أفلاطونية تبتعد عن هذه الجرائم اللإنسانية، مدينة العصر الأول للإسلام الحقيقي، لتتعدى بذلك كل العصور المتبنية خطابات دينية مغلوطة، مؤسسة على منطق اللامنطق، خطابات في أصلها سياسية، مدعمة للأقلية، رافضة للأغلبية رفضا استئصاليا، فغدت العودة حلم مستحيل بعيد المنال. فالبعد كامن في عدم الرجوع إلى الأصل (التاريخ الإسلامي)، والبحث في مضمراته وتفنيد قدسيته لتصحيح النظرة التقدسية له، واستبدالها برؤية نقدية علمية، تعالج الواقع وتنقص من حجم مآسييه.

الهوامش :

1 عبد الله إبراهيم: التخييل التاريخي: السرد والامبراطورية والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية، عمان، ط1 ،غلاف الكتاب.

2 سعيد يقطين: الرواية والتراث السردي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1,2006، ص .07

3 سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي: النص والسياق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ط2، 2001، ص 153.

4 محمد داود: الرواية الحديثة :كتابة الآخر والهناك، منشورات وهران ،2006 ،ص 16 .

5 - مخلوف عامر: توظيف التراث في الرواية الجزائرية :بحث في الرواية المكتوبة بالعربية،منشورات دار الاديب، ط1 ،ص17

6-الطاهر وطار: الأعمال الروائية الكاملة، وزارة الثقافة، الجزائر، المجلدالثالث،2010 ص .226

7 - المرجع نفسه ص .257

8 -عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1992 ص.25

المنارة للاستشارات
ww

9 -أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، المجلد الثاني، من السنة الأولى للهجرة إلى غاية السنة 35للهجرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995 ،ص.273
10- المرجع نفسه ص .272
11 - الطاهر وطار: الأعمال الروائية الكاملة، ص .258
12- المرجع نفسه ص 259.
13- سامي بن عبد الله بن أحمد المعنون: أطلس حروب الردة في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق
شركة العبيكان للأبحاث والتطوير، الرياض، ط1 ،2008 ،ص .25
14- المرجع نفسه، ص.104
15- أبو جعفر محمدبن جرير الطبري: تاريخ الطبري، ص .273
16 - الطاهر وطار: الأعمال الروائية الكاملة ص .258
17 -المرجع نفسه ص .259
18 -سمير حجازي: المتقن: معجم المصطلحات اللغوية والأدبية الحديثة (فرنسي عربي، عربي فرنسي)، دار الراتب للنشر والتوزيع القبة، الجزائر، د.ط، ص .207
19- الطاهر وطار: الأعمال الروائية الكاملة ص .272
20- المرجع نفسه ص247 .
21 - الطاهر وطار: الأعمال الروائية الكاملة ص.272
22-المرجع نفسه ص273.
23.-سورة النصر، ال آية110
24- الطاهر وطار: الأعمال الروائية الكاملة ص 296.
25– المرجع نفسه ص .298
26- المرجع نفسه ص 302 ، .303
27 -المرجع نفسه، ص.344
28-رضا عمر كحالة: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج 5، طبعة مزيدة، دس، ص305، 306
29 - الطاهر وطار: الأعمال الروائية الكاملة ص .289
30 –المرجع نفسه ص289.

المنارة للاستشارات
ww